التفاعل والتخاطب في اللسانيات الحديثة

محمد حمراوي
جامعة الجزائر 2 - الجزائر

Mohamed.hamraoui@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2018/09/21 تاريخ القبول: 2018/11/15

الملخّـص

يعـد تحليـل التفاعـلات اللغويـة مـن أهـم التطـورات التـي شـهدتها الدراسـات اللسـانية. ويتنـاول هـذا النـوع مـن الدراسـات نصـا ينتجـه أكـثر مـن متكلـم واحـد. هـذا الفعـل اللغـوي القائـم عـلى المشـاركة هـو مـا نسـميه تفاعـلا لغويـا، وهـو مـا ينتـج عنـه النـص التخاطبـي. وسـنحدد في هـذا المقـال مفهـوم التفاعـل، ومفهـوم التخاطـب، وأهميتهـما في التنـاول اللسـاني الحديـث. إضافـة إلى بعـض الأدوات المفهوميـة والإجرائيـة ضمـن هـذا المجـال.

الكلمات المفاتيح:

التفاعل - التخاطب - الملكة التخاطبية - الحوار - شركاء التفاعل.

المؤلف المراسل: محمد حمراوي، البريد الالكتروني: Mohamed.hamraoui@univ-alger2.dz

L'interaction et la conversation dans la linguistique moderne

Résumé

L'analyse des interactions est parmi les développements les plus importants dans les études linguistiques. ce genre d'études traite un texte produit par plus d'un locuteur. Cet acte linguistique basé sur la participation est ce que nous appelons «l'interaction verbale», qui se traduit dans le texte conversationnel. Dans cet article, nous déterminons le concept d'interaction, et de conversation, et leur importance dans l'approche linguistique moderne, en plus nous présenterons quelques outils conceptuels et opérationnels dans ce domaine.

Mots clés:

Interaction - conversation - compétence communicative - dialogue - partenaires d'interaction.

Interaction and conversation in modern linguistics

Abstract

Analysis of interaction is among the most important development in linguistics studies. this kind of studies deals with a text produced by more than one speaker. This linguistic act based on participation is what we call «the verbal interaction», which translates into conversational text. In this article, we will determine the concept of interaction and conversation, and their importance in the modern linguistic approach, In addition to this we will present some conceptual tools and operational tools used in this domain.

Keywords:

Interaction - conversation - communicative competence - dialogue - interaction parteners.

مقدمة

لا يمكن أن نتصور الوجود البشري دون الفعل التواصلي. هذا التلازم بين الإنسان كوجود وبين التخاطب بوصفه حدثا وفعلا وعلامة على الوجود، هو ما يبرر مسلمة مدرسة "بالو ألتو" (PALO ALTO) من خلال«المبدأ التواصلي في تداوليات التواصل» : "لا نستطيع أن لا نتواصل" (Watzlawick, 1972, P. 48). ولا يمكن أن نتصور استعمالا لغويا دون تفاعل، "فأن تتحدث يعني أن تتفاعل"(Gumperz, 1982, P.29).

يعالج البحث إشكالية تحديد مفهوم التفاعل، وإبراز أهميته في الدراسات اللسانية، ومدى حصافة الأدوات الإجرائية الخاصة بهذا التناول. وبالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، تم التطرق إلى المفاهيم والقضايا ذات العلاقة بمجال التفاعل والتفاعل اللغوي. ثم الوقوف على الاختلافات في المفاهيم، والتباينات في التناول، والتنوع في المناهج والإجراءات.

1. التفاعل: (Interaction)

يورد معجم تحليل الخطاب لمانغينو وشارودو مصطلح التفاعل، ولكن بشيء من الاقتضاب. على أساس أن هذا المفهوم "يحيل بصفة عامة جدا على فعل كلا شيئين (أو عديد الأشياء)، أو حدثين في الآخر، وهو مفهوم «مترحِّل» وقد ظهر في ميدان الطبيعة وعلوم الحياة، وتبنته بداية من منتصف القرن العشرين، العلوم الإنسانية لوصف التفاعلات التواصلية" (شارودو ومانغينو، 2008، ص309). وتجدر الإشارة إلى أننا لا نجد مصطلح "تفاعل" في المعاجم اللغوية العربية، وذلك بسبب الطبيعة الاشتقاقية للمصطلح من جهة، وأنه لم يستعمل في تلك الفترة من جهة أخرى.

وبعد هذا التحديد العام جدا، ينتقل المعجم إلى تحديد مجال هذا المفهوم ليبرر ما ذهب إليه سابقا من أنه مفهوم مترحِّل، يذكر: "في ما يخص مجموع العلوم الإنسانية والاجتماعية صار التفاعل اليوم موضوع دراسة في مختلف المدارس

والاختصاصات الفرعية التي تلتقي لتكوّن ما يمكن أن نسميه <مجرة تفاعلية>. وكان علم الاجتماع هو الذي وضع فيه هذا المفهوم أولا، ثم توطن في اللسانيات وعلم النفس"(شارودو و مانغينو، 2008، ص309).

وفي نهاية الحديث عن التفاعل يبرز المعجم ما يعنى به المشتغلون على التفاعل وهو "إعادة بناء التوزيعات التي يقوم عليها إنجاز التفاعلات الخاصة ومن ورائها استخراج القواعد العامة «للتناغم التحادثي" (شارودو و مانغينو، 2008، ص312).

في سياق هذا التعميم في الحديث عن التفاعل نجد روبير فيون (Robert Vion) يعرف التفاعل على أنه: "كل فعل ثنائي نزاعي أو تعاوني، بحضور فاعلين أو أكثر، وهو يغطي أيضا التبادلات التخاطبية والمعاملات المالية والعلاقات الغرامية ومباريات الملاكمة [...] فنلاحظ أن كل سلوك إنساني، مهما كانت طبيعته، ينشأ عن التفاعل" (Vion , 1992, P.18).

ينبغي هنا أن نقف عند هذا القول من حيث إنه يحدد طبيعة التفاعل وأهميته، إذ هو أساس كل سلوك إنساني مهما كانت طبيعته على حد تعبير فيون. وعليه فالتفاعل إذن هو مظهر الوجود الإنساني.

وقد يكون حصيفا هنا مقابلة التفاعل بالتفاعل اللغوي، فإذا كان التفاعل اللغوي هو ما قام على وسائل لغوية فإن التفاعل غير اللغوي يتمثل في "الدوران، الرقص، الرياضة الجماعية.....إلخ" (Kerbrat-Orecchioni , 1998, P.07) وينطبق المصطلح "تفاعل" (interaction) على عدد كبير جدا من اللقاءات الاجتماعية المختلفة على سبيل المثال، "يعد تحدث الأستاذ إلى طلبته في قاعة الصف نوعا من التفاعل، ويرى آخرون تحدث طبيب إلى مراجعه في العيادة، وتحدث أفراد مشتركين في دعاوى قضائية في المحكمة، وحضور اجتماع لجنة، وشراء طوابع من دائرة البريد، والكثير من تجارب الناس الأخرى التي يحدث خلالها تبادل شخصي للحديث نوعا من أنواع التفاعل" (يول، 2010، ص111).

2. التفاعل اللغوي

يكـون مـن المفيـد جـدا التطـرق إلى نـص لــ "فيـون" يحدد مـن خلالـه مفهـوم التفاعل اللغـوي، يقـول: "يمكـن أن نحـدد هـذا المفهـوم بالحديـث مثـل كربرات-أوركيـوني عـن التفاعـل اللغـوي، ويبقـى إذن هـذا المفهـوم في حقـل التبليـغ والنشـاط اللغـوي" (Vion, 1992, P.18).

ومـن خـلال التمييـز بـين التفاعـل والتفاعـل اللغـوي، يمكـن الوقـوف عنـد مجـال التفاعـل اللغـوي والـذي هـو "أكـثر تحديـدا مـن التفاعـل حتـى وإن اشـترط حضـور كل القنـوات شـبه اللغويـة وغـير اللغويـة في التبليـغ" (Vion , 1992, P.18).

يبـين هـذا القـول أن مـا نسـميه تفاعـلا لغويـا لا يجـب أن يخلـو مـن أدوات التواصـل الأخـرى التـي تكـون شـبه لغويـة أو غـير لغويـة إطلاقـا، التـي يدرجهـا المتخاطبـون في تخاطبهـم لاقتضـاءات مقاميـة لأن مسـألة الاسـتعانة بهـذه الأدوات لهـا قيمـة إضافيـة هامـة في التخاطـب هـذا مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى فـإن هـذه الأدوات ليسـت هـي لغـة التخاطـب وإنمـا هـي أدوات مسـاعدة، وعليـه فإنهـا لا تنفـي صفـة "اللغـوي" عـن التفاعـل إذا وجـدت فيـه.

وإذا انتقلنـا إلى مفهـوم التفاعـل اللغـوي عنـد أوركيـوني، فإننـا نجـد كلامـا أكـثر تحديدا فيـما يخـص هـذا المفهـوم، وهـي تحـدد بذلـك شرط كـون التفاعـل تفاعـلا لغويـا إذ تقـول: "حتـى يكـون هنـاك تبـادل تبليغـي لا يكفـي أن يتكلـم متخاطبـان (أو أكـثر) بالتبـادل، بـل يجـب أيضـا عـلى هذيـن المتكلمـين أن يتخاطبـا، أي يجـب عـلى الاثنـين أن (يندمجـا) في التبـادل، وأن ينتجـا أدلـة لهـذا الاندمـاج المتبـادل، بالاسـتعانة بمختلـف إجـراءات «الإثباتـات التخاطبيـة»" (Kerbrat-Orecchioni, 1998, P.05).

انطلاقـا مـن هـذا القـول يمكـن الوقـوف عنـد ثلاثـة معايـير متـى وجـدت يمكـن الحديـث عـن تفاعـل لغـوي وهـذه المعايـير هـي:

1. **الاندماج:** إذ من الممكن أن يتحدث متكلم في سياق ومتكلم في سياق آخر.
2. **إنتاج الأدلة:** فلا وجود لتفاعل لغوي ما لم توجد الأدلة اللغوية.

3. **الإثباتات التخاطبية:** وهي عموما التحيات والتقديمات وكل الأدلة اللغوية ذات الوظيفة التواصلية إضافة إلى كل الطقوس التخاطبية وتشرح كربرات-أوركيوني هذه الإثباتات بقولها: "تلعب التحيات والتقديمات والطقوس الأخرى «الإثباتيات» دورا مهما في التبادل التواصلي" (Kerbrat-Orecchioni, 1998, P.05).

وتجدر الإشارة هنا إلى تحديد شهير لـ غوفمان 1974 (Goffman) يعد أكثر حصرا بقليل (لأنه يقصي التفاعلات عن بعد أو المؤجلة، يقول: "نعني بمصطلح تفاعل (أي التفاعل وجها لوجه) تقريبا التأثر المتبادل الذي مارسه المشاركون على أفعالهم الخاصة بكل منهم عندما يلتقي بعضهم ببعض التقاء فيزيائيا مباشرا، ونعني بتفاعل واحد مجموع التفاعل الذي يحدث في مناسبة ما عندما يكون أفراد مجموعة معينة بحضرة بعضهم بعضا بصفة متواصلة، ويمكن للفظ <التقاء> أن يصلح لذلك" (Goffman,1974, P.23). وبصورة أبسط وأدق، يمكن وصف التفاعلات اللغوية بأنها تلك التي تحقق أساسا عن طريق أدوات لغوية مثل التخاطب (Goffman, 1974, P.07).

3. التفاعل والمعرفة المشتركة

تبني المعرفة المشتركة أسس عملية التفاعل في المحادثة. "فيشكل المتكلم خطابه انطلاقا مما هو مشترك ومفهوم عند غيره ممن يشاركه التلفظ، وتظهر في التفاعل الكلامي معرفة مشتركة تساهم في عملية التواصل بين المتكلمين" (الميساوي، 2012، ص 260).

أي أن هذه المعرفة المشتركة هي الوسط الحيوي لعملية التفاعل، ولذلك "فإن أي تفاعل يمثل إشارة قوية إلى الترابط الحاصل بين الأدوار الكلامية التي ينجزها كل مشارك، فيتحول المتكلم من دور إلى آخروفي ذهنه مجموعة من المقاييس المشتركة مع غيره، فهو ينتج كلامه وفقا لها ويوزعه متقيدا بمسألة الترابط الذي يمكنه من بناء أدوار كلامية سليمة ومفهومة" (الميساوي، 2012، ص 260).

وتمكّن المعارف المشتركة من التفاعل في المحادثة دون فصل مظاهرها الداخلية

عـن مظاهرهـا الخارجيـة، "إذ إن عمليـة التفاعـل تـأتي كتلـة واحـدة يعـبر فيهـا المتكلـم عـن فهمـه للمحادثـة وفـك رموزهـا مـن خـلال مـا يملـك مـن قـدرات لسـانية وغـير لسـانية تتفاعـل فيـما بينهـا لتشـكل مفتاحـا للفهـم وآليـات للتأويـل" (الميسـاوي، 2012، ص 261).

ولهـذه المعـارف المشـتركة رافـدان أساسـيان هـما: البنيـة اللغويـة والبنيـة الاجتماعيـة، ولذلـك "فـإن المتكلـم وهـو ينجـز كلامـه يعـود إلى مرجعـين أساسـيين في الآن نفسـه: مرجـع يتعلـق بمـا حصلـه مـن رصيـد لسـاني يختـار منـه مـا يناسـبه لحظـة إنجـاز الـكلام ومرجـع يتعلـق بالبنيـة الاجتماعيـة التـي أنتجـت بنـى لسـانية اسـتقرت في الذاكـرة الجماعيـة وباتـت مـن إحـدى خصوصيتهـا" (الميسـاوي، 2012، ص 261).

ويتأثـر المتكلمـون بثلاثـة متغـيرات في الوضعيـة الكلاميـة، وهـي "المتغـيرات النفسـية والمتغـيرات المعرفيـة والمتغـيرات الاجتماعيـة، التـي تسـاهم في ضبـط عمليـة التلفـظ وإنتـاج أشـكال كلاميـة لهـا خصوصيـات هـذه المتغـيرات مـا يجعلهـا متفقـة معهـا" (الميسـاوي، 2012، ص 262).

إن هـذه المتغـيرات الثلاثـة: النفسـية والمعرفيـة والاجتماعيـة تنضـاف إلى المرجعـين السـابقين: البنيـة اللسـانية والبنيـة الاجتماعيـة. ويمثـلان معـا ظـروف التلفـظ، بالإضافـة إلى طبيعـة البنـى الخطابيـة التـي عـلى أساسـها يحـدد المتكلمـون شـكلا تخاطبيـا معينـا. لذلـك "يضـع كل متكلـم، وهـو ينجـز كلامـه، في حسـبانه مجموعـة مـن الاعتبـارات تجعلـه يتقيـد بهـا في أثنـاء عمليـة التلفـظ، أهمهـا مـن يتكلـم وإلى مـن يتكلـم؟ ولذلـك فالأشـخاص غالبـا مـا يحتاجـون أكـثر مـن شـكل واحـد للـكلام وبالطبـع فهـم قـادرون عـلى طلـب معرفـة بدرجـة أكـبر مـن مجموعـة ضوابـط في عمليـة التلفـظ" (الميسـاوي، 2012، ص 262).

إن كل مـا أتينـا عـلى ذكـره فيـما يتعلـق بالمعرفـة المشـتركة ومـا يحيـط بهـا مـن مفاهيـم يصـب في تحديـد الدلالـة. فالدلالـة ليسـت في أذهانالمتكلمـين وليسـت في العـالم وإنمـا هـي في المعرفـة المشـتركة.

4. التخاطب

أما فيما يخص التخاطب فإنه عدّ أكثر تحديدا من مصطلح التفاعل، بل أكثر من ذلك، إذ "يستعمل في حقل تحليل الخطاب في معنى ضيق يشير إلى نمط مخصوص من التفاعلات اللغوية" (شارودو و مانغينو، 2008، ص139).

وعليه فالتخاطب بحسب ما يذهب إليه معجم تحليل الخطاب هو "فن الحديث المتحضر، كما يعد أيضا نمطا من أنماط التفاعل، ويؤسس كل هذا انطلاقا من أعمال كل من (شغلوف SCHEGLLOFF 1968، ولفنسن1983 LEVINSON)" (شارودو و مانغينو، 2008، ص140).

وإذا كان التخاطب نمطا من أنماط تفاعلية أخرى، فلابد له من شيء يميزه عن باقي الأنماط، هذا الشيء هو أن التخاطب "نشاط مجاني" (شارودو و مانغينو، 2008، ص40).

ويمكن حينئذ "أن نصف هذا النوع من التفاعل الخالي من الفائدة المباشرة والآنية وحيث نتكلم خاصة لمجرد الكلام من باب المتعة أو اللعب أو الآداب" (شارودو و مانغينو، 2008، ص40).

ونلاحظ أن هذا التعريف يقصي كل عمليات التخاطب ذات المنفعة أو الهادفة إلى شيء معين، أو تلك التي تتوخى تحصيل منفعة مستقبلية. "وكثير من الباحثين خاصة في البلدان الأنكلوسكسونية، يرون أن الخطاب نشاط تفاعلي أساسا، يماهون قليلا أو كثيرا تحليل الخطاب بالتحليل التحادثي" (شارودو و مانغينو، 2008، ص45).

إذا انتقلنا إلى مصطلح آخر يعد لصيقا بالتخاطب والذي هو التحليل التخاطبي الذي تتجاذبه مقاربتان: الأولى "تستعمل كلمة المحادثة في معنى أجناسي، والثانية تستعمل التحليل التحادثي للإشارة إلى أنماط من تحليل المبادلات اللغوية الأصلية التي تنتمي إلى سنن أخرى غير الإثنومنهجية وخاصة منها ما يتصل بتحليل الخطاب" (شارودو و مانغينو، 2008، ص40).

هاتان المقاربتان تفترقان في نقاط كثيرة يتجاوزها أ.رولي (Roulet) في كتابه

L'articulation du discours en français contemporain": "تمفصل الخطاب في الفرنسية الحديثة" إذ هو لا يميز المحادثات عن بقية أشكال الخطاب، يقول: "إني أستعمل لفظ خطاب بكيفية أجناسية لأشير إلى كل إنتاج يحصل عن تفاعل تغلب عليه اللغة سواء أكان حواريا أم حواريا أحاديا، شفويا أم مكتوبا تلقائيا أم بالصنعة في أبعاده اللسانية والنصية و المقامية" (شارودو و مانغينو، 2008، ص41).

تتحدث كربرات-أوركيوني في كتابها "La conversation" "التخاطب" وفي الفصل الأول تحديدا عن التخاطب في سياقه العام، حيث أدرجت أنواع التفاعل والتفاعل اللغوي وغير اللغوي إضافة إلى مختلف أنماط التفاعل اللغوي، لتنتهي بعد ذلك إلى ثلاث خلاصات عن التخاطب هي:

- يشكل التخاطب نمطا مخصوصا من التفاعلات اللغوية.
- وبصورة أدق، يدرس التخاطب عموما كصيغة نمطية عليا أي الصيغة الأكثر اشتراكا والممثلة للوظائف العامة للتفاعلات اللغوية.
- التبادلات التواصلية الحقيقة ليست بالضرورة أنماطا عليا بحتة.

نلاحظ غالبا في مجرى تفاعل معين، انزلاق جنس إلى جنس آخر، مثلا من ثرثرة غير لطيفة إلى لائحة احترافية في تفاوض تجاري أو استشارة طبية (Kerbrat-Orecchioni, 1998, P.08). "بينما تعتبر استعارات أخرى المحادثة تقاطعا مروريا يشتمل على حركة متعاقبة كثيفة دون أية حوادث اصطدام" (يول، 2010، ص112).

وعليه يمكن القول إن التخاطب شكل من أشكال الحياة، على أساس أن استعمال اللغة لابد له من تشارك. لأن "الخطاب لا يكون إلا في مخاطبة وهذا اللفظ نفسه مصدر خاطب فلا يتصور خطاب إلا في حال خطابية مع مخاطب معين" (الحاج صالح، 2013، ص16). فمعنى المشاركة في الصيغة بُدأة، "فالتخاطب كتبادل هو الذي يكون الموضوع للتحليل اللغوي والاهتمام بصفة خاصة بجزء منه ولا يعني أبدا التخلي عن النظر في المجموعة التي ينتمي إليها كخطاب متبادل" (الحاج صالح، 2013، ص51).

وقال الجاحظ عن التخاطب: "هو البيان الذي جعله الله تعالى سببا فيما بينهم ومعبرا عن حقائق حاجاتهم" (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص44.). فالتخاطب هو البيان أو التواصل باللغة.

وقال القاضي عبد الجبار في المغني: "المخاطبة مفاعلة ولا تستعمل إلا بين متخاطبين يصح كل واحد منهما أن يخاطب بُدأة وأن يجيب صاحبه عن خطابه" (القاضي، 1961، ص29). وذكر سيبويه أن "المشافهة لا تكون إلا من اثنين" (سيبويه، 1988، ص196).

ويُذكَر التخاطب في المراجع كثيرا بوصفه معيارا جوهريا للتفريق بين النصوص بصفتها وحدات منطوقة خاصة بحديث انفرادي ومحادثات، "ذلك المعيار الذي مفاده أن المحادثات ينشئها شريكا تفاعل على الأقل، بينما يفترض أنه ليس للنص إلا منتج واحد، ويمكن أن ينتج النص بوجه عام على نحو جماعي، ويستنتج أيضا من هذا التفريق كثيرا أن المحادثات بناء على ذلك تفهم على أنها في حد ذاتها وحدات تفاعلية، بينما تنكر هذه التفاعلية على النصوص" (هاينهمان و فيهفجر، 2004، ص242).

يقول كولثارد: "إننا في البداية نشعر بالحاجة إلى مستويين فقط من التلفظ والتخاطب، فالتلفظ يعرف بأنه كل ما يقال من قبل المتكلم قبل أن يتكلم شخص آخر أما التخاطب فإنه تلفظان أو أكثر" (الميساوي، 2012،ص48). وتتطلب المحادثة بوصفها تفاعلا كلاميا وجود مقابلة بين شخصين أو عدة أشخاص من مجموعة لسانية "تتمتع بسجل تواصلي موحد وبخصوصيات اجتماعية ونفسية تتعلق بالمكانة الاجتماعية وبالوضعية التي يدور فيها التفاعل" (الميساوي، 2012، ص57).

وتتمثل المحادثة في الأسس المباشرة الأولى للعلاقات الاجتماعية بين الأشخاص وهي مسألة تظهر في كل وقت، "وتتكون المحادثة من التبادل الكلامي والنغمي، فهي مسألة مشتركة بالنسبة إلى تطور التجربة الاجتماعية نفسها" (الميساوي، 2012، ص58).

وتلخص كربرات-أوركيوني خصائص التخاطب في نقاط ثلاث كبرى:

1. تكون المخاطبات نوعا خاصا من التفاعلات الكلامية.

2. تعبر المخاطبات عامة عن الشكل الأول لمادة التفاعل.

3. ليس بالضرورة أن تكون التبادلات الاتصالية الحقيقية مصنفة تصنيفا دقيقا ونؤكد أنه غالبا ما تقع بعض الانزلاقات من تفاعل إلى آخر في نفس مجرى التفاعل (Kerbrat-Orecchioni, 1998, P.08).

وتؤكد ترافرسو (Traverso) على أن للتخاطب خصوصيات داخلية وخارجية، "تتمثل الخصوصيات الداخلية في مظهر التبادل على أساس أن كل متكلم يتحول إلى سامع ثم يعود إلى مرتبة المتكلم وهذا التعاقب الذي يختص به التخاطب يميزه عن كل وضعيات الكلام الأخرى مثل المحاضرات أو الخطب السياسية. ويعد تعاقب الأدوار في التخاطب دون إعداد مسبق، سمة تمييزية في تحديدها" (Traverso, 1999, P.06).

ويمكن أن نحدد التخاطب بصفة أكثر بساطة من خلال قولٍ لطه عبد الرحمان: "وأن «التخاطب» هو إجمالا عبارة عن إلقاء جانبين لأقوال بغرض إفهام كل منهما الآخر مقصودا معينا" (طه، 1998، ص237). ثم لا يجد طه عبد الرحمان بدا من الربط بين التخاطب من جهة والقواعد التي تنضبط بها عملية التخاطب على مستويين:

- المستوى التواصلي أو التبليغي.
- المستوى التعاملي أو التهذيبي.

يقول: "ولما كان التخاطب يقتضي إشراك جانبين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال، لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية أو قل «فائدتها التواصلية»، نسميها بـ«قواعد التبليغ»، علما بأن مصطلح «التبليغ» موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان، كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد تحدد وجوه استقامتها الأخلاقية أو قل «التعاملية»، نسميها بـ «قواعد التهذيب»

مـع العلـم بـأن مصطلـح «التهذيـب» موضـوع للدلالـة عـلى التعامـل الأخلاقـي. ومعـروف أن التخاطـب في كلا وجهيـه، التواصـلي أو التبليغيوالتعامـلي أو التهذيبـي، أخـذ يشـغل الباحثـين مـن مختلـف الآفـاق العلميـة منطقيـين ولسـانيين وفلاسـفة واجتماعيـين ونفسـانيين" (طـه،1998، ص237).

5. تحليل التخاطب

إن أول مسـألة ينبغـي أن تذكـر هنـا هـي "التأكيـد عـلى إزالـة الفصـل بـين النـص والمحادثـة وإفسـاح مـكان جوهـري لتحليـل المحادثـات ... وعـلى الرغـم مـن أنـه ثمـة تسـويغ لدمـج مشـكلات تحليـل المحادثـة في مدخـل لغـوي نـصي فإنـه يبـدو مـن المفيـد أن تـبرز هنـا مـرة أخـرى حجتـان لمعالجـة تكامليـة للنصـوص والمحادثـات" (هاينهـمان وفيهفجـر، 2004، ص215).

تقـوم الحجـة الأولى عـلى وجـوب التأكيـد عـلى أن "المحادثـة تصـوِّر شـكل التفاعـل اللغـوي تصويـرا رائعـا، شـكلا يتفاعـل مـن خلالـه المشـاركون في الفعـل في سـياق يحـدد تفاعـلا مبـاشرا، ومـن ثـم يُجـرُون نشـاطا منظـما تعاونيـا. أمـا الحجـة الثانيـة فإنـه يعـزى للمحادثـة لذلـك أيضـا مـكان خـاص في أفـكار تحليـل النـص إذ إن المحادثـات هـي الشـكل الأصـلي للنشـاط اللغـوي" (هاينهـمان و فيهفجـر، 2004، ص215).

وعـلى أسـاس هاتـين الحجتـين اللتـين مفادهـما أن التخاطـب هـو الشـكل الأصـلي للنشـاط اللغـوي أولا، وأنـه قـادر عـلى تصويـر التفاعـل اللغـوي تصويـرا رائعـا ثانيـا فإنـه "تنبغـي المطالبـة بتجـاوز الفصـل بـين المجالـين العلميـين الـذي لم يعـد يتمسـك بـه، الـذي أدى لتجاوزهـا لعقـد مـن الزمـان إلى تعاضـد بنـاء بـين تحليـل النـص وتحليـل المحادثة"(هاينهـمان و فيهفجـر، 2004، ص216).

إلى جانـب مصطلـح (تخاطـب) هنـاك مصطلحـات أخـرى تتقـارب مـع هـذا المصطلـح وتتداخـل معـه أحيانـا مثـل: الحـوار والتحـادث والتواصـل والتبـادل. ولا سـبيل إلى التمييز بـين هـذه المفاهيـم إلاّ ضمـن نمـوذج نظـري محـدد. "وهكـذا فإنـه يوجـد في المراجـع إلى جـوار المقولـة الأسـاس «محادثـة» الحـوار والتحـادث أيضـا حيـث تسـتخدم بعـض

مقترحات النماذج هذه التصورات مترادفة" (هاينهمان و فيهفجر، 2004، ص216).

بعد الحديث عن المصطلح، يجب ههنا الحديث عن كنه التخاطب، عن طبيعته ومكوناته، عن هذا الشيء الذي يسمى "تخاطبا". يمكن تحديد المحادثة عن طريق أفعال يتم من خلالها افتتاح عملية التخاطب "أي أن إنجاز هذه الأفعال يفضي ضرورة إلى وسط المحادثة وتفترض أفعال مماثلة لإنهاء المحادثة ويقع ما يسمى بوسط المحادثة بين افتتاح المحادثة وإنهائها الذي يحدد شكليا بأنه يتأخر عن الافتتاح ويتقدم على الإنهاء، ومع ذلك لا خلاف في أن ذلك ليس كافيا بأية حال لتحديد المكونات المفردة للمحادثة. ومع ذلك فما يزال من غير الممكن عمل حدود موضوعية بين هذه الأجزاء الثلاثة للمحادثة وتكمن الصعوبة الرئيسية كما كانت الحال من قبل في تحديد ما يسمى وسط المحادثة أو مرحلة تحقيق الهدف تحديدا دقيقا والكشف عن المبادئ البنوية لتنظيمها والخواص الوظيفية المرتبطة بها" (هاينهمان وفيهفجر، 2004، ص226).

هذه الأفعال: أفعال الافتتاح التي تفضي إلى الوسط، وأفعال الإنهاء وتسمى وحدات التخاطب "ويمكن أن يقرر فيما يتعلق بتحديد وحدات المحادثة وبخاصة بوحدات البنية الكبرى لما يسمى بوسط المحادثة أن متكلما ما يحاول أن يجعل مضامين الوعي في محادثة ما غير مباشرة، يبنى هذه المضامين ويصورها في وحدات دلالية (أساسية). وتتبع عملية البناء الدلالي للوحدات فيما يبدو أوجه الاطراد والقيود ذاتها، التي تعد مميزة لنصوص الحوار الذاتي (الداخلي)، أي أن الوحدات الدلالية الأساسية لا يمكن أن تدمج في وحدات أكثر تعقيدا إلا حين توجد بين القضايا علاقات ربط قضوية داخلية". (هاينهمان و فيهفجر، 2004، ص229).

كما يجب التنبيه إلى جذور تحليل التخاطب التي تعود إلى التحليل العرقي، إذ "نشأ تحليل المحادثة إثر نشأة علم الإثنوميتودولوجيا وتمييزه بسمات خاصة به ويهتم بدراسة نظام المحادثة اللساني والاجتماعي بالاعتماد على تسجيل المحادثات وفحصها فحصا دقيقا. ويهتم أيضا بدراسة النظام الداخلي للأدوار الكلامية كما

يساعد على معالجة تفاصيل الحياة اليومية" (الميساوي، 2012، ص61).

ورغم أن التوجهات في تحليل المحادثة عديدة، إلا أنه يمكن تصنيفها إلى تيارين أساسيين هما:

- تيار يعنى بالجوانب الشكلية البنوية والتنظيمية، تمثله أعمال كل من ساكس (Sacks) وشجلوف (Schegloff) وجفرسن (Jefferson).
- وتيار يهتم بدراسة الجوانب التداولية والتفاعلية والاجتماعية وتمثله أعمال غرايس (Grice)، وفان دايك (Van Dijk)، وسيرل (Searle).

ويمكن أن نفهم تحليل المحادثة على أنه بعد خاص في التحليل الذي يمكن أن يستعمل لبلوغ نوع خاص من بعد نظري وتنظيمي يتعلق بطرق التفاعل بين أفراد المجتمع. وقد ذهب هرتاج (Heritage) (1984) إلى أن تحليل المحادثة له هدف مركزي يتمثل في وصف القدرات التي يستعملها المتكلم وتفسيرها قصد المشاركة.

وهناك من الدارسين من يدرج تحليل التخاطب في تحليل الخطاب وينزع منه استقلاليته، ويرى أنه فرع من فروع تحليل الخطاب، "إن دراسة تحليل الخطاب لم تتغافل عن دراسة تحليل المحادثة بصفتها مظهرا من مظاهر تحليل الخطاب الشفوي، وقد رأى الدارسون، في هذا المجال، أن تحليل المحادثة يقوم على وصف كيفية اشتغال المحادثة وتفسيرها" (الميساوي، 2012، ص01).

ويمكن إجمال القضايا التي يعني بها تحليل التخاطب في:

- كيفية إنتاج المتكلم الكلام وتأويله قصد التواصل مع الآخر.
- الكشف عن طبيعة بناء المحادثة من جوانب لسانية وبراغماتية، إذ يرى "موشلر" (Moeschler) أنه يتعين على دارس المحادثة الإجابة عن سؤالين رئيسيين، يتعلق الأول بالبرهنة على الدراسة التي تهتم بالمحادثة وليس بالجملة ويتعلق الثاني بإمكانية تحليل اللغة تحليلا براغماتيا (موشلر، 1992، ص110 - 111). وكنتيجة لذلك "ارتبط تحليل الخطاب باللسانيات عامة وأصبح تحليل

المحادثة مقاربة من تحليل الخطاب" (الميساوي، 2012، ص42).

بناء على ذلك فإن الهدف الأساسي لتحليل التخاطب هو توصيف الانتظام، إذ "تهدف طرق تحليل المحادثة إلى البحث في كيفية انتظام عملية التلفظ وتخضع هذه التفاصيل لاختيار قائم على منهج في التحليل يساعد على فهم المحادثة وتنظيمها" (الميساوي، 2012، ص62).

6. الملكة التخاطبية

سنتناول هنا مفهوم الملكة التخاطبية في مقابل الملكة اللغوية ونعتبر أن الملكة التخاطبية هي: "المقدرة على استخدام اللغة في سياقاتها الفعلية التي تتجلى فيها" (محمد محمد،2007، ص148).

ويمكن أن نقابل بين الملكتين اللغوية والتخاطبية على النحو التالي: "يمكن أن ينظر إلى الملكة اللغوية على أنها المعرفة المتطلبة لتركيب الجمل اللغوية الصحيحة الصياغة، أو فهمها، بينما الملكة التخاطبية قد ينظر إليها على أنها المعرفة المتطلبة لتحديد ما تعنيه مثل هذه الجمل عندما يُتكلم بها بطريقة ما في سياق معين" (محمد محمد،2007، ص149).

ويكون بذلك كل ما من شأنه أن يساعد في تحديد نحوية الجمل ملكة لغوية، وكل ما من شأنه أن يساعد في بناء دلالة تلك الجمل بالنظر إلى المقام الذي أنجزت فيه ملكة تخاطبية. "ويدخل في صنف الملكة التخاطبية كل ما من شأنه أن يعين المتخاطبين على استخدام الجمل اللغوية، وتأويلها تأويلا سليما يتوافق مع متطلبات المساق" (محمد محمد،2007، ص149).

تنضاف الملكة التخاطبية إلى الملكة اللسانية و"ينطلق المتكلم في إنتاج الكلام وفي ذهنه مجموعة من القدرات اللسانية يستحضر منها ما يوفر له عملية التواصل، فترد الألفاظ متسلسلة بعلاقات توزيع محكمة حتى يتمكن المتكلم من الاسترسال في الكلام، ويتطلب هذا الاسترسال في أبسط مبادئه، معرفة القواعد العامة التي اتفق عليها الناس في المحادثة من آداب الكلام واحترام مواطن التدخل في سلسلة

التلفظ" (الميساوي، 2012، ص208).

وهـذا الاندمـاج اللاشـعوري بـين الملكتـين: اللسـانية والتخاطبيـة هـو الـذي يتيـح للمتكلـم الاسترسـال في الـكلام. وذلـك لأن القواعـد النحويـة لا تكفـي للتواصـل وإنمـا يحتـاج المتخاطبـون إلى الأعـراف العامـة التـي اتفـق عليهـا النـاس في أثنـاء التخاطـب فيـما بينهـم. فأصبحـت هـذه الأعـراف الاجتماعيـة قسـيمة للقواعـد النحويـة. "وتكتفـي عمليـة التسلسـل بالمقبوليـة النحويـة (l'Acceptabilité Grammaticale) ولكنهـا تتجاوزهـا إلى المجـال الـدلالي والبراغـماتي حيـث تتحكـم القواعـد الدلاليـة والـشروط البراغماتيـة في خطيـة التسلسـل وتجعلـه يتقـدم في المـدى الزمنـي وفقـا لهـذه الـشروط، وهـو مـا يجعـل المتكلـم يبـذل جهـدا كبـيرا في الجمـع بـين هـذه الـشروط وجعلهـا مناسـبة ومتوافقـة فيـما بينهـا" (الميسـاوي، 2012، ص209).

1.6. الملكة التواصلية

كان الظهـور الأول لمفهـوم «الملكـة التواصليـة» في أمريـكا الشـمالية، انطلاقـا مـن الانتقـادات التـي وجههـا «ديـل هايمـز» لثنائيـة «كفايـة/ إنجـاز /Compétence Performance» كـما جـاءت في النظريـة التوليديـة التحويليـة (تشومسـكي، 1965)، وقـد ركـز في هـذه الانتقـادات بالخصـوص عـلى كـون هـذه النظريـة لم تهتـم بملاءمـة النـص المنطـوق مـع السـياقات المقاميـة، والسوسـيو-ثقافية، ولأنـه يـرى في ذلـك نوعـا مـن التجاهـل لمـا يسـميه «قواعـد الاسـتعمال». ولذلـك فـإن الملكـة التواصليـة فينظـره تشـمل «كفايـة لسـانية» أي معرفـة بالقواعـد النحويـة و«كفايـة بسـيكو سوسـيوثقافية Psycho-Socio-Culture» أي معرفـة قواعـد الاسـتعمال والقـدرة عـلى اسـتخدامها. ويؤكـد هايمـز (Hymes) عـلى أن المفهـوم الجديـد للكفايـة الـذي جـاء بـه يجـد أصولـه في تكامـل تياريـن متمايزيـن هـما:

- النحو التوليدي التحويلي.
- إثنوغرافيا التواصل.

وأن النقطـة المشـتركة بينهـما هـي الاهتـمام بقـدرات مسـتعمل اللغـة. وعمومـا فـإن

المتخصصين في «إثنوغرافيا التواصل» يتجاوزون الأشكال اللسانية ليصبوا اهتمامهم على استعمال اللغة، أي وصف وتحديد ما يحتاجه المشاركون في أي تفاعل لفظي، وما لابد منه للنجاح في التواصل مع الآخرين، وهذا ما يسميه هايمز بالملكة التواصلية (زاهدي، 2011، ص31).

7. بين التخاطب والحوار والتفاعل

هناك حقل مصطلحي ضم عدة مصطلحات تقترب من مفهوم التخاطب أحيانا، وتلتبس به أحيانا أخرى، يضم هذا الحقل: المقابلة (entretien) والاستجواب (interview) والتفاعل الكلامي (interaction verbale) والحوار (dialogue).

ويمكن تحديد نقاط الاختلاف بين التخاطب والحوار كالآتي: (الميساوي، 2012، ص53).

في الحوار يتكلم كل شخص حسب دوره ويترقب الشخص الآخر حتى يأتي دوره من جديد، غير أن في التخاطب قد ينقطع الكلام وتتداخل الأدوار فتكون عملية التبادل عفوية وهذا ما يجعل عملية تحويل التخاطب إلى نص مكتوب أمرا صعبا.

1. له بنية مخصوصة حيث تتبادل الشخصيات مواقفها بطريقة محكمة ومنظمة.
2. يكون دائما مكتوبا.
3. الحوار نص كتب ليقدم في المسرح من قبل ممثلين.
4. الحوار في السينما ينزع إلى الاقتراب من التخاطب الطبيعي العفوي لكنه يبقى حدثا مصطنعا.
5. الفرق الجوهري بين التخاطب والحوار يتعلق بتحويل التخاطب من الشفاهي إلى المكتوب، إذ يصعب جدا تحويل التخاطب إلى نص مكتوب بطريقة منظمة وفي بناء محكم.
6. تكون الملفوظات في الحوار محكومة بعلاقات نحوية واضحة حتى وإن استعملت الشخصيات اللهجة العامية، فإن البناء يكون مركبا تركيبا واضحا ومقروءا بينما يعتمد التخاطب عناصر غير لسانية مثل التنغيم أو بعض الحركات الجسدية

التي تساعد على الفهم.

وإذا كان مفهوم التخاطب يختلف عن مفهوم الحوار من مناح عدة، فإنه يقترب من مفهوم التفاعل، بل يكادان أن يكونا وجهين لعملة واحدة، ويمكن تحديد مفهوم التفاعل كالآتي: "التفاعل عملية شاملة لما يحدث في أثناء المقابلة بين المتفاعلين من كلام وحركات وطبيعة العلاقات بينهم والوضعية التي يدور فيها الحديث وكذلك موضوعه" (الميساوي، 2012، ص55).

تميّز كربرات-أوركيوني بين نوعين من التفاعل: "التفاعل الكلامي الذي يتحقق بواسطة وسائل لغوية والتفاعل غير الكلامي الذي يتجسد في أعمال غير لغوية مثل الرقص والرياضة الجماعية وحركة المرور" (Kerbrat-Orecchioni, 1998, P.07). إذن فالتفاعل أشمل من التخاطب بصفته يتحقق عن طريقة اللغة وعن طريق غيرها، هذا ما نجد خليفة الميساوي يؤكد عليه إذ يقول: "ومن هذا المنطق يعد التفاعل أشمل من المحادثة، إذ هو عملية تواصلية تنشأ بين العناصر المشاركة فيها، بينما تقتصر المحادثة على التفاعل الكلامي، فيهضرب من ضروب التفاعل" (الميساوي، 2012، ص55). وعليه فالتفاعل مصطلح عام تدرج ضمنه كل الأفعال التواصلية.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربيّة

- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر. (1941-1940). الحيوان. تح: عبد السلام هارون. ط2. ج1. القاهرة.
- زاهدي، الحسن الحسين. (2011). التواصل: نحو مقاربة تكاملية للشفهي. إفريقيا. الشرق. الدار البيضاء.
- الميساوي، خليفة. (2012). الوصائل في تحليل المحادثة دراسة في استراتيجيات الخطاب. ط1. عالم الكتب الحديث. الأردن.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (1988). الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر.
- الحاج صالح، عبد الرحمان. (2013). الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية. منشورات المجمع الجزائري للغة العربية. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر.
- القاضي، عبد الجبار. (1961). المغني في أبواب التوحيد والعدل. ج 7. القاهرة.
- محمد محمد، يونس علي. (2007). المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية. ط2. دار المدار الإسلامي. طرابلس. ليبيا.
- طه، عبد الرحمن. (1998). اللسان والميزان أو التكون العقلي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء.

باللغة الأجنبية

- شارودو، باتريك، ومانغينو، دومينيك. (2008). معجم تحليل الخطاب. تر: عبد القادر المهيري وحمادي صمود. مر: صلاح الدين الشريف. المركز الوطني للترجمة. دار سينارتا. تونس.
- موشلر، جاك، وريبول آن. (2010). القاموس الموسوعي للتداولية. تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجذوب. مر: خالد ميلاد. المركز الوطني

- للترجمة. دار سيناترا. تونس.
- يـول، جـورج. (2010). التداوليـة، تـر: قـصي العتـابي. ط1. الـدار العربيـة للعلـوم نـاشرون. بـيروت.
- هاينهـمان، فولفجانـغ وفيهقجـر، ديـتر. (2004). مدخـل إلى علـم لغـة النـص. تـر: سـعيد حسـن بحـيري. ط1. مكتبـة زهـراء الـشرق. القاهـرة. مـصر.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Goffman, E. (1973). La Mise en scène et la vie Quotidienne. Les relations en public. T 2. Minuit. paris.
- Goffman, E. (1974). les Rites d'interaction. Minuit. paris.
- Gumperz, J. (1982). Directions in sociolinguistics. In Ethnography of communication. New York.
- Kerbrat-Orecchioni, C. (1996). la conversation. Seuil. Paris.
- Maingueneau, D. (1984). Genèses du discours. Liège. Mardaga.
- Traverso, V. (1999). l'analyse des conversations. Nathan. France.
- Vion, R. (1992). La Communication verbale: Analyse des interactions. Hachette. Paris.
- Watzlawick, P. et al. (1972). Une Logique de la communication. Edition le Seuil. Paris.